

الدكتور سالم المحمداني

المنهج العلمي
بين الباحثين و ابن خلدون

صليتي بهذا البحث بعضها قديم . يرجع الى ايام دراسة الماجستير . حين كانت كلية الآداب بجامعة القاهرة . تقضي الامام بعقرية ابن خلدون . شرطا لاجتياز امتحان السنة الاولى فيها . وقد وقفت حينئذ على شيء كثير من جوانب فكر الرجل . في ثقافته وعبقريته . يتمثل بالنظريات الاجتماعية التي لاتزال جامعات الشرق والغرب تعتمدھا الى الآن . أما الجانب الآخر الذي يصلني بهذا الموضوع فهو جديد . بدأ حين عهد الي تدريس (البيان والتبيين) للجاحظ في السنة الرابعة بقسم اللغة العربية . فقد كان لابد ان احيط بفكر الرجل من جوانبه المختلفة . لا من خلال هذا الكتاب فحسب . بل من خلال كتبه الأخرى . وعلى الأخص كتاب الحيوان .

وحين اطلت الوقوف على هذا الكتاب شدني اليه ما شدني الى مقدمة ابن خلدون . وعدت بذكرياتي الى سنين مضت . فاذا الاثنان يلتقيان في أكثر من جانب . ولكن أساس هذا اللقاء في ما رأيت . المنهج العلمي الذي جمع بين العقلين الكبيرين .

وإذا كان منهج البحث هو الطريق الذي يصل به الباحث الى الحقيقة . وانه يستخدم في الوصول اليها وسائل معينة يقف بها على حقائق الأمور . فما اجدر ان يكون لكل من الجاحظ وابن خلدون منهج يقوم على التفكير العلمي الى حد ما . واقول الى حد ما لأحتاط من بعض مايوجه من نقد الى الرجلين فيما توصلا اليه من الحقائق . اذ لابد من ملاحظة بعد المسافة الزمنية التي تفصل بين عصرنا وعصر هذين المفكرين ^(١) . فقد مات الجاحظ في منتصف القرن الثالث الهجري . بينما ودع ابن خلدون الحياة في (١٠٨ هـ) فاذا علمنا ان (بيبكون) العالم الفرنسي الذي استمد الكثير من قضايا الطبيعة مما تركه الجاحظ عاش في القرن السابع عشر الميلادي . وان (اوجست كونت) الذي اعتمدت نظرياته في علم الاجتماع على ماقرره ابن خلدون في هذا العلم . قد عاش حتى مفتتح القرن التاسع عشر . ادركنا ضخامة العقل وروعة الفكر الذي دفع بي الى الربط بين الرجلين . وقد يكون السؤال معقولا ومقبولا . اذا تذكرنا انهما لايجتمعان على اختصاص واحد فقد اختص ابن خلدون بكتابة التاريخ . واشتهر بمقدمته المعروفة . بينما عرف الجاحظ عن طريق (البيان والتبيين) وبواسطة كتاب (الحيوان) والبخلاء والكتب الأخرى التي لاتمت بصلة في اكثرها الى التاريخ . فالأول اقرب الى ان يكون مؤرخا . والثاني ميلا الى الأدب منه الى شيء آخر . ويكون الرد حينئذ . ان القصد من البحث ليس المقارنة

(١) نشر : علي عبدالواحد وافي : عبقرية ابن خلدون ص ٢٠٦

وجورج غريب : الجاحظ ص ٦١

ومحمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٤٦

بين جوانب التخصص وأنواع المعارف عند الرجلين . فذلك مما يختلف فيه أحدهما عن الآخر . فابن خلدون هدف الى تخليص بحوث التاريخ مما اصابها من ضعف وبعد عن الحقيقة . وتجاهل لنواميس الكون والطبيعة وتطور حياة المجتمعات الانسانية الى جيل . ووصلت به هذه البحوث الى جملة من النظريات الاجتماعية والفلسفية التاريخية ، فكان مقياسه في ذلك عقل علمي وبحث يعتمد على التجربة والملاحظة ورفض لواقع التفكير السائد في عصره . ومن هنا اعتبره الباحثون (سابقا لعصره . وانه اصدق شاهد على عبقريته وعلى اتجاهه العلمي في دراسة المجتمع . انه حدد الطريقة في علم الاجتماع واهتدى الى كشف عن كثير من حقائق هذا العلم) (٢) واما الجاحظ فقد توصل بشغفه العلمي وعقله الفذ الى جملة من التجارب التي اسمح لنفسه ان اسميها (تجارب مختبرية) وذلك من خلال حس دقيق وملاحظة عميقة وتجربة علمية يستخدم في سبيلها كل ماوقع تحت يده من وسائل حسية وملاحظة غينية ونظرة موضوعية ومسائلة منطقية ليؤكد بها عقله الذي رفض الكثير مما كان يسود عصره . وهذا السلوك العلمي هو الذي جعلني اجمع بين هذين المفكرين المسلمين .

ومن هذا الجانب يراه بعض الدارسين واحدا (من رجال العلم الطبيعي . ومع انه استمد كثيرا من معلوماته في الحيوان ... من الروايات العربية ... فانه كان ذا ميل صحيح الى العلوم الطبيعية . وفي كتابه ملاحظات قيمة في التطور واثار البيئة وفي علم النفس عند البشر والغرائز في الحيوان . والجانب التجريبي في كتاب الحيوان بارز جدا . ثم ان الجاحظ استطاع أن يستخرج روح النشادر وملح النشادر بالتقطير الجاف) (٣) والمنهج الذي سلكه هذا البحث يقوم على اساسين :

الاول : اثبات ان الطريق الذي اتخذه الرجلان في البحث يعتمد على منهج علمي يتوافر فيه بعض ما يتوافر في مناهج العصر الحديث (٤) . وفي هذا المجال يؤكد الدكتور محمود قاسم (اما الطريقة العلمية التي يوصي ابن خلدون باتباعها فهي طريقة مبتكرة تعتمد على دراسة القوانين التي يخضع لها المجتمع . وعلى المقارنة بين انواع المجتمعات ومختلف الشعوب وهنا نرى انه يريد منهجا علميا بمعنى الكلمة لانه يهدف به الى الكشف عن القوانين التي يمكن استخدامها في تفسير الماضي والتنبؤ بالمستقبل . وليس هذا المنهج

(٢) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٤٦ . وانظر علي وافي : عبقرية ابن خلدون ص ٢٠٦

(٣) عبس فروخ : تاريخ الفكر العربي ص ٢٩٥

(٤) انظر علي عبدالواحد وافي : عبقرية ابن خلدون : ٢٠٤

المبتكر الذي يحدثنا عنه الا طريقة المقارنة بين مختلف الظواهر الاجتماعية . وهي الطريقة التي يعترف علماء الاجتماع في الوقت الحاضر انها من افضل طرق البحث (٥) . كما يؤكد فكتور شلحت (ان النزعة العلمية العقلية المنطقية التي تنزع اليها المعتزلة تتجلى عند الجاحظ في تسجيل الواقع تسجيلا شاملا بواسطة الملاحظة والمعاينة والسماع والتجربة) (٦)

والاساس الثاني : هو التأكيد على ان الباحثين يسلكان هذا المنهج ويلتقيان عنده في موضوعات واحدة احيانا او تكاد . وانهما قد توصلا بفضل ذلك المنهج الى نتائج واحدة احيانا او احكام متقاربة الى حد بعيد احيانا اخرى . والمسائل التي اجتمع عندها الباحثان على هذا المنهج هي : العقل والشك والملاحظة والمشاهدة . وما ينجم عن هذه المسألة الاخيرة من دراسة في اثر البيئة الطبيعية . ووقوف امام النفس الانسانية .

فهل هناك ضرورة تستدعي البحث في الجاحظ وابن خلدون . في حين ان كثرة من الدراسات قد تناولت كلا منهما بالبحوث العديدة ؟ - ولكي يكون ضروريا ما نبث فيه نقول : ان الكثيرين قد بحثوا الجاحظ من امثال شفيق جبري وطه الحاجري وداود سلوم وحنا الفاخوري وجورج غريب واحمد امين وعبد المنعم خفاجي وفكتور شلحت وصموئيل عبد الشهيد . وبلات ووديعه النجم (٧)

كما ان كثيرين قد درسوا ابن خلدون من امثال عمر فروخ وعلي عبدالواحد وافي ولاكوست وطه حسين وساطع الحصري ومحمد عبدالله عنان وغيرهم (٨) . ولكن تلك الدراسات وهذه الابحاث قد تناولت كل واحد من الرجلين على حدة . كما انها تناولتهما في مسائل محددة . واهم من هذا ان تلك الدراسات والابحاث لم تتطرق الى مسألة المنهج وعلميته . وانها لم تلتفت الى ما التفت اليه هذا البحث وهو اجتماع الباحثين حول هذا المنهج العلمي . وقد كان هو الحافز الذي يؤدي الى ما اطلقت عليه (الضرورة) في قيام هذا البحث .

وها نحن اولاً نتناول هذه المسائل واحدة فواحدة :

(٥) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ٣٤٣

(٦) فكتور شلحت : النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ : ١٥٥

(٧) انظر : قائمة المراجع في نهاية هذا البحث

(٨) انظر : قائمة المراجع في نهاية البحث

١ - العقل :

من افضل الوسائل التي اعتمدها الجاحظ في بحثه **العقل** . فما انسجم مع العقل اخذ به وما تعارض معه عزف عنه . ويجب الا نستغرب من استخدام الجاحظ العقل . فهو (اعظم رجل اخرجته مدرسة النظام . وهو فيلسوف طبيعي سار على غرار النظام في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الايمان واليقين) ^(٩) والجاحظ لم يقف عند حدود ما يقال او يشاع . بل كان يعرض كل شيء على العقل ويركن الى سلطانه (وقد ورد في كتاب الحيوان في مواضع كثيرة ما يدل على انه كان يرد الرأي الى العقل . ولا يأخذ بأي شيء حتى يحكم عقله ويجعله المرجع الأخير . فان أجاز العقل ذلك الرأي او الشيء اجاز به واخذ به وان لم يجزه اهمله ورماه) ^(١٠) وذلك يدل على قوة عقل الجاحظ وعمق نفاذه وسيطرته على تفكيره . وقد يبدو للنظرة الاولى ان هذا الامر يتعارض مع اعتماد الرجل على الحواس . ولكن واقع الامر ليس كذلك لان تؤكد الحواس كما يرى الجاحظ انما هو حكم ظاهر بينما يؤكد العقل حكم الباطن فاذا اخطأ الاول في رأيه . فان الثاني يصيب (لعمرى ان العيون لتخطيء فلا تذهب الى ماتريك العين واذهب الى مايريك العقل . والأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول . والعقل هو الحجة) .

ومن هنا لم يستغف الجاحظ كثيراً من أوهام عصره وخرافات زمانه وقلما رفضها لمجرد الرفض بل كان يعرضها على العقل . يجادل فيها ويناقش . فاذا ثبت بعدها عن العقل يرفضها بعد ذلك . وكثيراً ما هزأ بها وتهكم على روايتها ومصدقها . من ذلك هزؤه (بروايات العرب عن السعالى وأولاد السعالى من البشر وبما روى من الشعر في رؤية الجن وأحاديثهم) ^(١١)

ولاشك ان الاعتماد على العقل في منهج البحث له مايرره في كل عصره . ولعل هذا العصر أشد الخاحاً في اعتماده على العقل . أما على عهد الجاحظ فهو دلالة ايجابية تدل على عقلية الباحث الفذ في وقت لم تكتمل فيه وسائل البحث العلمي على الشكل الذي نراه اليوم . وقد كان الجاحظ واحداً من أشهر رجال المعتزلة الذين اعتمدوا على العقل في جدالهم واثبات قضاياهم . فقد كان كل من الجدل والمنطق والعقل رائد المعتزلة كما يعرف .

(٩) قدرتي طوقان : مقام العقل عند العرب : ٩٤

(١٠) المصادر السابق : ٩٨ . وانظر داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ : ١٤٨

(١١) محمد عبد المنعم خفاجي : الجاحظ : ١٦٩ - ١٧٠

(وإيمان الجاحظ بالعقل الى هذا الحد جعله يشك في كل أمر حتى يبلغ فيه اليقين فالأفكار المسبقة في النظر الى الأمور حاول ان يتجنبها قبل (باكون) ومن هنا كان نقاشه في شؤون كثيرة سمعها ولم يرض عنها عقله ، ومن هنا محتجته ارسطو في قضيتها رأى فيها غير رأيه (١٢) . فقد سخر مما قاله ارسطو عن الفيل (وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله ان يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها اشباهه من العلماء) (١٣) وطالما استخدم اسلوب التهكم في خبر سمعه فاستنكر وقوعه أو أمر استعصى عليه قبوله بواسطة العقل . من ذلك تهكمه بارسطو أيضاً حين ادعى ان الكلاب السلوقية كلما دخلت في السن كانت أقوى على المعازلة فيقول (وهذا غريب جداً وقد علمنا ان الغلام احمر ما يكون واشيق وانكح واحرص عند اول بلوغه ثم لا يزال كذلك حتى يقطعه الكبر) (١٤) . وقد عاب ارسطو (اموراً كثيرة منها أنه لم يبين في تحقيقه على الاصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه أي لم يثبت اموره بالبيان أو بمعرفة السماع) (وما اهتدى اليه الجاحظ بعقله العلمي الحاد ان النمل تأخذ من الحب الذي تدخره للشتاء جزء الانبات والتناسل لثلا يفسد ويتعفن) (١٥)

ولاشك ان العلم الحديث يؤكد هذه النظرة حتى يومنا هذا . وهذا هو الذي دفع بروكلمان الى الاعتقاد بأن الجاحظ (قد اهتدى اليها بتجربته الخاصة ، فهذا ونحوه يدل على ان الجاحظ لم يحمله الاستغراق في قراءة الكتب على التنازل بالكلية عن حاسته وملكته القطرية في دراسة الطبيعة والاحياء) (١٦)

واذا كان كتاب الحيوان يعج بمئات من هذه الأمثلة التي تدل على اعتماد الجاحظ على العقل في تصديق الخبر واجراء التجارب وعرض الأمور على بساط المشاهدة والملاحظة . فان هذه الوسيلة - أي العقل - لا يقف استخدام الجاحظ لها عند حدود طبائع الحيوان وسلوكه فحسب . فان العقل كان أقوى وسيلة امتلكها الجاحظ في تأكيد أي رأي واثبات اية قضية عرضت له دونما تحديد أو تخصيص . من ذلك مثلاً تحكيمة العقل كأساس (من أسس التشريع . وعلى هذا فالعقل عند الجاحظ هو المرجع وهو الحكم في التفسير والأخذ بالأحاديث النبوية) (١٨) . ومن هنا يقف الجاحظ ليحكم عقله في تفسير المفسرين

(١٢) جيسن جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : ٧٨

(١٣) الجاحظ : الحيوان ٢١/١

(١٤) المصدر نفسه : ٣٣/٣ . وانظر صموئيل عبد الشهيد : ٤٤

(١٥) محمد عبد المنعم خفاجي : الجاحظ : ١٧٩

(١٦) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١٠٧/٣

(١٨) قدرتي طوقان : مقام العقل عند العرب : ١٠١ .

لبعض الآيات وفي قبول أو رفض بعض الأحاديث التي لا يراها تتفق مع العقل : من ذلك (تهكمه من مجرد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى منخريه بزوج سنابير ... فكفيناهم مؤونة الجرذان ... وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص الخ) (١٩)

وفي مجال الاعتماد على العقل فإن ابن خلدون لا يختلف عن الجاحظ سواء كان ذلك الاعتماد مباشراً أم كان عن طريق الملاحظة والمشاهدة الحسية . واعتماده على العقل جعله يشك في ما يصل إليه من أخبار فكان يسلط عليها كل وسيلة تعتمد على العقل فهو وحده الذي يستطيع تمييز الممكن عن الممتنع . وهذا دون شك تفكير علمي صائب لا يزال عصرنا الحديث يعتمد عليه وسيلة من الوسائل التي لاتتناقض مع ما يصل إليه من نتائج العلم .

ومن هنا وقف ابن خلدون يكذب الخرافات الشائعة على عصره وخصوصاً ما لا يقع منها تحت حس أو تجربة علمية أو مبدأ فلكي . ووسيلته في ذلك حس عقلي نافذ يقيس به الأشياء . وفي ذلك يقول في معرض رده على بعض ما تناقلته العامة من امور وأساطير وخرافات (وقد حملت على الاعتقاد ان ليس شيئاً من صحيح لأن كل هذه الاشارات ليست مبنية على مبدأ علمي أو فلكي أو أي مبدأ آخر) (٢٠) .

وقد انتبه الدكتور طه حسين الى اهمية هذا المبدأ في معرض حديثه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية وهو يشير الى منهجه في دراسة التاريخ فرأى ان كل ماسلكه من (قواعد الفحص والتحقيق ترجع الى اصل واحد وهو وجوب البحث بطريقة نظرية عما اذا كانت واقعة من الوقائع ممكنة في ذاتها وعما اذ لم تك مناقضة لطبائع العمران وما اذا كانت تتفق مع الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما) . (٢١)

فطه حسين يؤكد على هذا الاساس مبدأ العقل الذي اتخذه ابن خلدون في فحص الحقائق بل انه على هذا الاساس يخضع كل الوسائل الممكنة الاخرى لعملية يجري عليها العقل ويخضعها له . وقوله (ممكنة في ذاتها وليست متناقضة لطبائع العمران) هي في الواقع عملية عقلية ليس الا . وقد كانت من قديم الزمان وسيلة لا يستغنى عنها في بحث

(١٩) انظر الجاحظ : الحيوان - ٦٧ . وشفيق جيري : الجاحظ معلم العقل والأدب ص ١٨٤ - ١٨٥ . وحنان الفاخوري : الجاحظ : ٥٨ .

(٢٠) لاكوس : العلامة ابن خلدون . ص ٢١٠ . وانظر المقدمة ص ٢٣١ .

(٢١) طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ص ٣٢ .

الحقائق الكونية والبشرية . ولا تزال هذه الوسيلة تفعل فعلها في عملية البحث العلمي وخاصة في علم الاجتماع . وابن خلدون في مجال استخدام العقل ينطلق من نفس منطلق سلفه . وهو الايمان بما يتفق مع العقل والرفض لما ترسمه اوهام الناس وخرافاتهم واساطير اجدادهم . ومن هنا يرفض ما يردده الناس على عهده الخرافة التي تقول ان سواد ولد حام كان بسبب دعوة أبيه عليه « وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصو بلون السواد لدعوة كانت عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه . وينفون ذلك حكاية من خرافات القصص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد » . (٢٢)

ولم يقف ابن خلدون عند رفض هذه الخرافة بل هداه عقله الى ان يناقشها في ضوء المشاهدة والملاحظة التي تتخذ من العقل سبيلا الى الانطلاق فيقول « وفي القول بنسبة السواد غفله عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين كل سنة قريبة احدهما من الاخرى فتطول المسامطة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر » . (٢٣)

وفي هذا السلوك منهج علمي سليم لا يعتمد العرض أو الرفض فحسب وانما يتبع ذلك بمناقشة قوامها الملاحظة والمشاهدة وأساسها العقل . ومن هنا وقف الدارسون المحدثون يشيدون بمنهج الرجل الذي لا يكتفي بعرض الحقائق عرضاً سطحياً وانما يميزونه على غيره بسبب استخدامه قانون السببية كما يسميه (ايف لاكوست) في بحثه عن ابن خلدون فيرى الباحث (ان المواد التي استخدمها ابن خلدون متأتية من تبحره وخاصة من ملاحظاته ومن اختباره الملموس كرجل سياسة وما يميزه أساساً بالنسبة لمؤرخين آخرين هو اهتمامه البالغ بقانون السببية . فهو يتجاوز تحليل الأسباب المباشرة لكي يتقدم في البحث عن الأسباب العميقة في الأصدعة التي لاتصدر عن الفكر التاريخي التقليدي . فاذا كان التاريخ بشكله الخارجي ينص على (تسجيل الأحداث) فان خصائصه الداخلية هي تحليل وتصويب الوقائع والتقضي اليقظ للأسباب التي أوجدتها والمعرفة العميقة للطريقة التي جرت فيها الأحداث وتولدت منها . ان العمل لأجل الافهام هو المحرك الأساسي لدى ابن خلدون والهدف الذي يحدد منهجه » (٢٤)

(٢٢) و(٢٣) المقدمة : ص ٨٣-٨٤ .

(٢٤) لاكوست : العلامة ابن خلدون . ٢٢٢

وهذا حكم رجل لا يست الى ابن خلدون بصلة . ولكن الروح الموضوعية هي التي املت عليه حكمه .

ان ابن خلدون يتميز على غيره في رأي الدارس كونه لا يقنع بما يقال بل هو يحكم العقل الذي يأخذ قانون السببية .

ويضيف علي عبدالواحد وافي الى تحكيم العقل سببا آخر هو التعليل بحقائق الطبيعة أو علم النفس . فابن خلدون يعتمد (الاستدلال المنطقي الخالص ان كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق الدليل العقلي والى التعليل بحقائق العلوم الطبيعية أو علم النفس ان كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق هذه الحقائق) (٢٥) وهذا يدل على ان ابن خلدون لم يقف أمام الأحداث وقفة رجل عادي بل هو يفكر ويشغل عقله ويعمل فكره . ويكون حصيلة ذلك عنده ان احداث التاريخ لا يمكن ان تدور بدون سبب . هي لا تدور في الهواء كما يتراءى للرجل الساذج . اذ لابد ان تتحكم فيها قوانين من الحياة والكون تفعل فعلها في المجتمع . ومن خلال ما يدور فيه أو يتحرك ضمن نطاقه . وذلك هو ما اطلق عليه ابن خلدون قانون (العمران البشري) فسقوط دولة ونشوء أخرى وموت جيل وحياة آخر واندحار جيش وانتصار آخر . كل ذلك لا يتم دونما سبب أو داع . ولولا العقلية الفذة واستخدامها العميق لما توصل ابن خلدون الى ابتداء ما انتهى الى تسميته (بعلم الاجتماع) الذي يزعم اكتشافه الغربيون في عصرنا الحاضر .

● ٢ . الشك :

ونتيجة حتمية لاستخدام العقل كان اللجوء الى الشك فيما يعرض للباحث من اخبار . وقد اتخذ عصرنا الحديث الشك في مناهج البحث وسيلة للوصول الى الحقائق . وصار اسم ديكارت يقترن بهذا المنهج الذي سمي بمنهج الشك . وتبعه في ذلك باحثون من الشرق من امثال طه حسين وغيره بحيث صار لازمة من لوازم البحث العلمي الدقيق . والحق ان الجاحظ يقترب من ديكارت احيانا في موقفه من الشك فهو الذي يقول لا اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . ومعنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين .

(٢٥) علي عبدالواحد وافي . عبقریات ابن خلدون : ٢٠٤ .

فالشك في نظره سبيل الى اليقين فهو لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها حتى يصل الى يقين قاهر .

وكذلك ديكارت فانه لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها على امل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان (٢٦) .

وقد نسي الذين يتخذون من الشك وسيلة لتقويم النص أو للوصول الى الحقائق العلمية الثابتة ان العرب والمسلمين قبل عدة قرون مارسوا هذا المبدأ واستخدموه من اجل الحقيقة ولأجل دعمها .

ولا اقول ذلك من اجل ابن خلدون او الجاحظ فقد كان جامع الحديث يسلك سلوكا علميا بحثا حين لا يثبت من الحديث قبل ان يثبت من حامله وذاويته . وفي مسأله العلمية كان الجاحظ (يثبت من صدق حامل الخبر قبل الخبر فيقول مثلا : « حدثني بعض اهل العلم فيمن طال ثواؤه في ارض الجزيرة وكان صاحب اخبار وتجربة وكان كلفا بحب التبين معترضا للامور يحب ان يفضي الى حقائقها وتثبت اعيانها بعلمها وتميز اجناسها (. فكان يعرف للعلم قدره وللبیان فضله الخ) (٢٧) او يقول : (وخبرني هذا الرجل وغيره من اهل النظر واصحاب الفكر انهم رأوا ... الخ) (٢٨)

ولست بحاجة لان أجزئ هذا النص من أجل توضيح مايدل فيه على التثبت الذي يمكن صاحبه في الوصول الى الحقيقة الناصعة . والواقع ان كتاب الحيوان يمتليء (بمثل هذه الاشارات التي يرى فيها الجاحظ اسما ينطلق منه في قبول مايلغنه من روايات أو طرائف او غرائب شريطة ان تكون موافقة للعقل والمنطق وحين ينكر خبرا او يرفض رواية يستخدم لفظة زعم ويزعمون وقيل . وفي هذه الالفاظ ما فيها من الريبة والشك ... ولا يكتفي بذلك بل يعمل على مناقشته وتفنيده ويخرج منه باستدلالات يدحض بها كثرة من الخرافات والاساطير) (٢٩) ومن ذلك قوله : (زعموا ان النمر الانثى تضع في مشيمة واحدا جروا وفي عنقه افعى قد تطوقت به . واذا لم يأتنا في تحقيق هذه الاخبار شعرائع أو خبر مستفيض لم نلتفت لفته) . (٣٠)

(٢٦) شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب : ١٥٤ .

(٢٧) صموئيل عبدالشهيدي : الروح العلمية عند الجاحظ ص ٤٠ .

(٢٨) المصدر نفسه : ص ٤٠ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٤٠-٤١ .

(٣٠) الجاحظ : الحيوان . ١٦٨/٧ .

فالجاحظ هنا يرفض هذا الزعم لسببين : الاول ان الخبر لا يؤيده عقل او يؤكده علم والثاني : لاثباته أخبار أو أشعار أو أقوال السابقين وواضح من أول كلامه استخدام كلمة (زعموا) . وهذا التفكير العلمي عند الجاحظ لا يعتمد رفض الروايات والاخبار من اجل الرفض بل هو يحيل القضايا على العقل والمنطق والواقع . لانه يرى ان تلك الاخبار ربما خالطتها الاكاذيب وبالغت فيها الاقاويل . فالعقل هنا هو الفحص الاخير (لذلك يشدد النكير على الكذابين من رواة الغرائب والاعاجيب وكان ارسطو المهدف الأكبر لمرمى سهام الجاحظ . وزيادة في الموضوعية فان الجاحظ لا يبت في حكم بتاً نهائياً . ففي حالات كثيرة نراه يستخدم اصطلاحات علمية نفتدي بها نحن اليوم في ابحاثنا .

من مثل (وارى جواز الامراو) (ولست ابت بانكار الشيء) في مثل حديثه عن ولد الكركدن وهو قوله حين يشك في الخبر (ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن راسه واعتلافه ثم ادخله راسه بعد الشيع والبطنة ولا اقر الولد يخرج راسه من فرج امه حتى يأكل شبعه وارى جوازه موهوما . الا ان قلبي ليس يقبله ... ولست ابت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل الى رده) . (٣٢)

ولست ابالغ اذا قلت ان هذه العبارات وغيرها كثير دليل على روعة الروح العلمية التي كان الجاحظ يتمثلها اروع تمثل . ولتأكيد مدى ماكان من اهتمام الجاحظ بالشك من اجل الحق والمعرفة اورد قولته المشهورة فيه وكأنه فيها يوجه كلامه الى كل باحث عن الحق حيث يقول (اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما . فلولم يكن في ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه . ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم . ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات في القوة والضعف) (٣٣)

وجدير بكل باحث عن الحق ان يتمسك بقولة الجاحظ هذه . اذن لاطمأن الناس الى ان المعرفة لاخوف عليها من عبث العابثين . وفي مبدأ اتخاذ الشك وسيلة من وسائل التحقيق العلمي يلتقي الجاحظ مع ابن خلدون . ولعل من جملة ماهدف اليه بواسطة الشك هو تخليص البحوث التاريخية من الكذب والخرافات والاساطير مما لا تخضع لعقل

(٣١) جورج غريب : الجاحظ : ٦٣-٦٢ .

(٣٢) الجاحظ : الحيوان ١٢٥/٧ وانظر فكتور شلحت : النزعة الكلامية : ص ١٥٦ .

(٣٣) الجاحظ : الحيوان ٣٥/٦ وانظر محمد عبدالمعص خفاجي : أبو عثمان الجاحظ ص ١٧١-١٧٢ . (٣٤) عمرفروخ

عبقريّة العرب في العلم والفلسفة . ص ٥١ .

او تقع تحت الحقيقة (وكانت هذه الخرافات لاتزال سائدة في العامة ومع ذلك فقد كان دأب علامتنا ابن خلدون يكافح الخرافات) (٣٤).

ولقد اشار ابن خلدون الى ذلك اشارات كثيرة في مستهل الكتاب الاول في مقدمته اذ يقول : (ومن الاسباب المقتضية له - اي تأليف الكتاب - وهي سابقة على جميع ما تقدم . الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله . فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تميز الصدق من الكذب وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم) . (٣٥)

وواضح من قوله (تميز الصدق من الكذب) والذي يجعله (ابلغ في التمحيص) انه يؤكد مبدأ الشك الذي يصل بصاحبه الى الخبر اليقين أي (الحق) ودليل ذلك انه أورد بعد هذا الكلام رواية نقلها (المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من اجسام معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعابنتها وتم بناؤها في حكاية طويلة من احاديث خرافة مستحيلة) (٣٦) فهذا الخبر . وأمثاله كثير . لا يمكن أن يلقي قبولاً من ابن خلدون كما لم تلق تلك الخرافات التي ردها الجاحظ بالحجة والمنطق والعقل .

وهذا وذاك عند ابن خلدون والجاحظ انما يدلان على فهم عميق لطبيعة العمل الذي هدف اليه كل من المفكرين الكبيرين وخاصة في اتخاذ مبدأ الشك واحداً من المبادئ التي تشكل حجراً أساساً ثابت ومكين في منهج البحث العلمي .

وفي مقدمة ابن خلدون تأكيد واضح على هذا المبدأ . ورد أوضح لكل ما لا يقع تحت نظر او تجري عليه مشاهدة اولاً يصدقه عقل ولذلك نجده يؤكد على ما يسميه في أغلب الأحيان (امكان وقوع الشيء) أو (تمييز الحق من الباطل) أو (الامكان والاستحالة) وهذه عبارات تؤدي كلها الى شيء واحد وهو الشك في الخبر أو الحدث أو في كل ما لا يمكن قبوله أو وقوعه وحدوثه واما الأخبار عن الواقعات فلا بد من صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك

(٣٥) ابن خلدون : المقدمة . ص ٣٥-٣٦ .

(٣٦) المصدر السابق : ص ٣٦ .

أهم من التعديل ومقدماً عليه فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلينا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق والكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله وما نحكم بتزييفه (٣٧) . ولست أجدي محتاجاً للتعليق على قيسة الشك ومبلغه في رأي ابن خلدون وقد عمدت الى تسجيل هذا النص لاستقصاء رأيه في أهمية الثبوت من قبول الخبر أو عدمه . وابن خلدون في هذا ليس أقل من الجاحظ اعتداداً بالشك واهتماماً باستخدامه على رغم اختلاف كل منهما عن الآخر فيما استخدم هذا المبدأ من أجله الا ان الذي اتفق عليه الرجلان ان مبدأ الشك ضروري ضرورة شديدة في منهج البحث .

٣. الملاحظة والملاحظة :

ونقصد بالملاحظة هنا . الملاحظة العلمية التي تقوم على منهج (و) يقوم بها الباحث بصبر وأناة للكشف عن تفاصيل الظواهر وعن العلاقات الخفية التي توحد بين عناصرها أو بينها وبين بعض الظواهر الأخرى (٣٨) وهذه الملاحظة هي (الملاحظة الدقيقة لظاهرة ما مع الاستعانة بأساليب البحث التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة) (٣٩) وإذا كان الشك قد صار لازماً من لوازم البحث العلمي فان الملاحظة والملاحظة تعتبر واحدة من الأسس التي يقوم عليها أي بحث يتسم بالعلمية ومهما تعددت الوسائل والسبل التي توضع أمام الباحث العلمي فانه لا يستغني عن هذه الملاحظة لكي يصل الى نتائج بحثه بعد طول موازنة وأعمال فكر وولع في الوقوف أمام أية ظاهرة من الظواهر . ولعل أروع ما يسجل للجاحظ وابن خلدون في هذا المجال ما أثر عنهما من آراء وتعليقات كانت نتيجة من نتائج الوقفة الطويلة والنظرة العميقة والاستكشاف الدقيق يرافق ذلك حسن التعليق لظواهر الطبيعة أو الحياة أو الانسان .

(٣٧) المصدر نفسه : ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣٨) محمود قاسم : المنطق الحديث ومنهج البحث : ص ٩٦ .

(٣٩) المصدر نفسه : ٩٢ .

فهذا هو الجاحظ يدحض بطول المشاهدة وعمق الملاحظة ودقة التعليل ما رددته خرافات القدماء وأساطير الأولين وتناقلته كتب التاريخ بشأن (السواد والسود فيرده الى البيئة الطبيعية أو الى الأرض التي يعيشون فيها يقول على لسانهم : والسواد والبياض انما هو من قبيل الخلقة والبلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن مثل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها وليس ذلـك من قبل نسخ ولا عقوبة ولا تشويه ولا تفضيل) (٤٠) .

والعجيب ان ابن خلدون يعالج المسألة نفسها في معرض رده ايضا على الخرافات والأوهام وهو يكشف عن ذلك أوهام المؤرخين وجهلهم ، ثم يعلل ذلك تعليلا علميا دقيقا فيرده ايضا الى تأثير الحرارة فيما يصل بالقاريء الى قنعة تامة لاتترك أي شك في نفسه : (وقد توهم بعض النسائيين ممن لاعلم لديه بطباع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد) : (٤١)

وشأن ابن خلدون في هذه المسألة شأنه في غيرها من المسائل لا يكتفي برفض ما يأباه عقله او ما يمتنع على طبيعة منهجه العلمي وانما هو يعلل ليصل بتعليله الى قناعة وليقع الآخرين بالحجة والدليل وهو يستخدم في ذلك ملاحظاته ومشاهداته وطول نظره فيقول : (وفي القول بنسبة السواد غفلة عن طبيعة الحر والبرد . واثـرهما في الهواء فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة . قرية احدهما من الاخرى فتطول المسامـة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القبط الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر) (٤٢) .

وهو تعليل ينم عن عقلية فذة تدل على طول تفرغ للمسألة التي ينظر اليها ابن خلدون بل مجالدة وتحكيم عقل ودقة ملاحظة .

هذه مسألة لا يختلف فيها اذن الجاحظ وابن خلدون وهي ان كانت حقيقة او شبه حقيقة جغرافية فانها نتيجة من نتائج استخدام المشاهدة الدقيقة والملاحظة الطويلة . واذا سلمنا بروعة النتائج التي توصل اليها كل من الباحثين في هذه المسألة فلربما يزيد اعجابنا بهما اكثر اذا عرفنا ان عامل الملاحظة عندهما لم يقف عند هذا الحد فقد تعداها الى دراسة الشعوب وتطور المجتمعات بل الى اكثر من ذلك حين يعزى الى البيئة العنصرية

(٤٠) ودیعة طه النجم : الجاحظ والحاضرة العباسية . المقدمة . ص ٩ .

(٤١) ابن خلدون : المقدمة . ص ٨٣ .

(٤٢) المصدر السابق : ص ٨٤ .

والولادية نوع التطور الذي يجري على الافراد والجماعات وبالتالي ينعكس ذلك على لون الحضارة ومقدار تقدمها ومدى تطورها ويمتد اثره على المشاعر والعواطف ونوع التفكير . فهذا هو ابن خلدون يلاحظ (في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان اسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والاطماع والى الاغراض والغايات والى قوة الارادة لدى الافراد ولا حظ ان تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ولكنها تخضع ايضا للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على أن يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها وانتهى الى انها ترجع الى خواص قومية وجنسية ولكنه لاحظ أيضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالأقليم والماء والأرض والموقع والغذاء . واذن فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي أن ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ولكي نفهم هذه يجب أن نحسب حساباً للعوامل الطبيعية) . (٤٣)

فابن خلدون حين يربط بين النظم السياسية وطبيعة البشر وحين يخضع ذلك كله الى ظروف العلاقات الاجتماعية وبواعثها وحين يربط بين هذا كله وبين الجنس وما يخضع له من مشاعر وعواطف لا يجد سبيلاً الى اشباع نهمة في القناعة ولذلك فانه يعتقد ان لعوامل البيئة الطبيعية أثراً لا يمكن اغفاله للحكم على كل مظاهر التطور والهبوط والانكماش للجماعات والدول . وهو تليل لا يمكن تحقيقه (بجرّة قلم) كما يقول المثل وانما يحتاج الى طول المشاهدة والملاحظة واحكام العقل وتبّع لكل الظواهر الاجتماعية وما يتبعها من حركة وسكون والى ربط ذلك كله بالبيئة الطبيعية المتفاعلة مع الانسان . ومن هنا يرى بعض الدارسين ان ابن خلدون ليس (فيلسوفاً اجاعياً فحسب . بل هو عالم اجاعي وواضع علم الاجتماع على اسسه الحديثة . لم يسبقه الى ذلك أحد . ثم أن علماء الاجتماع الذين جاءوا بعده من الغربيين أنفسهم كانوا دائماً مقصرين عنه في بعض النظريات الاجتماعية أو غافلين تمام الغفلة عن عدد من قوانين العمران التي استخرجها هو في القرن الثامن الهجري) . (٤٤)

واذا كان هدف ابن خلدون في هذه المحاولة تقرير حالة يهدف من ورائها الى دراسة أحوال المجتمع دعاه اليها تخلص البحوث التاريخية - كما ادعى - مما أصابها على أيدي المؤرخين فان العجب ليأخذ الدارس حين يجد الجاحظ يقترب من هذه الدراسة ويعطي أحكاماً مقاربة من قبل ابن خلدون وهو كما نعرف رجل أدب لا باحث تاريخ أو عالم اجتماع .

(٤٣) محمد عبدالله عنان : ابن خلدون . ص ١٥٨ . وارجع بشأن ذلك الى فصول الباب الثاني من المقدمة .

(٤٤) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة . ٦٩٥ .

فالجاحظ يشبه (المجتمعات بالكائنات الحية التي تنمو باطراد فتتنوع البيئات والأوضاع يفرض عليها التنوع في التركيب والانفعال وهو بذلك يمهد السبيل أمام النظريات الحديثة التي تقول ان البيئة العنصرية والولادية تفرض على الأفراد عقليات وعادات وثقافات خاصة تبدو وكأنها انعكاسات البيئة على الضمائر الفردية ولطالما أعلن الجاحظ ان فوارق المدنية والامكانيات عند مختلف الشعوب انما تخضع لمواهب غريزية عند كل جنس كما تخضع الى تركيبه والى الجوال الذي يعيش فيه) . (٤٥)

فالذي يقرره الجاحظ هنا لا يختلف في شيء عما يقرره ابن خلدون وهو تأثير العوامل البيئة على طبائع البشر وأثرها في أمزجتهم وتصرفاتهم ومستوى معيشتهم بل ان تأثير ذلك ليمتد الى لون البشرة وغيره .

وبالتالي فان هذا التفاعل ينسحب أثره على العادات والعقليات والثقافات ولا يختلف اثنان - على ما أظن - في أن الباحثين الكبار قد قرروا حقيقة واحدة ودرسنا ظاهرة واحدة . بل وتوصلا الى نتيجة ان لم تكن واحدة فهي متقاربة الى أبعد الحدود . ولست أعتقد ان ابن خلدون كان يعول على الجاحظ في اقرار هذه النظرية التي أقرها علم الاجتماع حديثاً لسبب بسيط هو ان ما توصل اليه ابن خلدون في هذا المجال ليس الا جزء ضئيلاً مما درسه وقرره حتى لقد اقترنت به كل الدراسات الاجتماعية التي صارت علماً يحسب له حساب في عصرنا الحديث .

والمدهش حقاً ان كثيراً مما رصدته (المشاهدة والملاحظة) عند الجاحظ وابن خلدون قد أدّى الى نتائج بعيدة . فهذا الجاحظ تصل به ملاحظاته ومشاهداته الى نتائج علمية في الطبيعة والكيمياء والفيزياء . من ذلك ما يقرره بشأن الضوء والصوت اذ يقول : (ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعده والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لا يصل اليك في سرعة البرق لأن البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع) . (٤٦)

أرأيت طرافة تعليل الجاحظ التي لا تختلف الا في العمق عما تطرحه نظريات العصر الحديث بهذا الشأن . ومن هنا يمكن أن نقرر ان ظاهرة المشاهدة عند الجاحظ تمثل واقعية حسية لاندع مجالا لتقول قائل على الاطلاق بدليل ان الرجل كان يشاهد مسائله مشاهدة شخصية ولا يتركها الا وهو يقرر فيها ما يقرر .

(٤٥) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . ص ١٤٧ و ١٤٨ .

(٤٦) الجاحظ : الحيوان . ٤٠٨/٤ .

من ذلك ماقرره بشأن مايطراً على طبيعة المخصي بعد خصيه اذ يقول : (قد رأيت أنا بعضهم خصى أربعة هو أحدهم . ورأيت الخصاء قد جذبه الى حب الحمام وعمل التكتك والهراش بالديوك وهذا شيء لم يجز منه على عرف وانما قاده اليه قطع ذلك العضو)^(٤٧) ويسمع الجاحظ ان القطران والكبريت الأصفر اذا صبا في أفواه بيوت النمل قتلاه فلا يكفيه مايسمع فيجري التجربة بنفسه ليتأكد مما يشاع بهذا الشأن (وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلا)^(٤٨) .

والجاحظ لا يهدف في تجاربه الى اثبات ظاهرة بعينها فحسب فهو في ذلك شأن العالم الذي يريد اقرار ظاهرة ليعممها وليخرج فيها بنظرية معينة أو مبدأ معين فهو يصور لنا مثلاً (كيف قطع أعضاء بهيمة وراح يشرحها دارساً خصائصها ووظائفها . أو كيف ألقى عليها عنصراً كيميائياً ليرى انفعالاتها . أو غير ذلك من شؤون التجربة العلمية التي كان يستند غالباً الى نتائجها المشابهة ليقرر مبدأ معيناً)^(٤٩) .

ومن هنا يقرر أحمد أمين ان الجاحظ سبق الى اتجاهات قيمة فيما تسمى الآن سيكولوجية الحيوان . فهو يراقب نداء الديك بالليل ويبحث هل اذا كان في قرية واحدة يصيح أولاً ؟ ليعلم هل تصيح الديكة بالتجارب أو بطبعها ؟^(٥٠) .

ويمتلك الجاحظ روح العالم الفذ الذي لاتغريه قدرته فيتجاهل قدرات الآخرين وكذلك كان لا يتردد في سؤال ذوي الخبرة وأهل المعرفة ممن هم أوسع معرفة وأكثر اطلاعاً وأقرب الى الاختصاص من ذلك سؤاله أحد البحريين عما زعمه أرسطوان السمك لا يتلعب شيئاً من الطعام الا بيبغض الماء . وحين يكون جواب الرجل بالنفي يطمئن الجاحظ الى الجواب ويقول : (وهذا البحري صاحب كلام وعلل وهو يتكلف معرفة العلل)^(٥١) وفي هذا مايدل على خلق العالم الحق .

ولعل الجاحظ لم يتكلف هذه الأساليب الا وصولاً الى الحقيقة وابتغاء لها فهو لا يتعجل الأمور ولا يطلق الكلام قبل أن يتحقق من نتيجته ويصل الى صحته . ومن هنا كانت دقة الملاحظة والاختبار الشخصي تلازمان كل تحقيقاته العلمية ولعل من مظاهر ذلك كثرة استخدامه ألفاظ (رأيت ولاحظت) وأمثالها مما يدل على ممارسة الرؤية ممارسة شخصية .

(٤٧) الجاحظ : الحيوان . ١١٨/١ .

(٤٨) المصدر نفسه . ٣٦/٤ . وانظر صموئيل عبدالشهيدي : ٧٣ .

(٤٩) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . ص ٧٧ .

(٥٠) أحمد أمين : ضحى الاسلام ٣٩٨/١ .

(٥١) الجاحظ : الحيوان . ١٧/٦ . وانظر شفيق جبري : الجاحظ : ١٣٤ .

وفكتور شلحت : النزعة الكلامية : ١٣٩ - ١٤٠ .

وإذا كان لجوء الباحث الى المشاهدة الحسية قد وصل به الى ماقررنا فان هذه الظاهرة - المشاهدة والملاحظة - قد وصلت نتائجها عند ابن خلدون الى ابعد من ذلك . نعم لقد اعتمدها الباحث في رصد الظواهر الاجتماعية . وما ينتج عن تفاعلها وحركاتها . ولقد وقف علي عبد الواحد وافني على عين الصواب حين رأى ان ابن خلدون (في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية تاريخية لظواهر الاجتماع أو بعبارة أخرى تتمثل في جمع المواد الأولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ .. الخ) (٥٢) .

فالمشاهدة والملاحظة اذن جانباً أساسياً في مااعتمد عليه ابن خلدون حين اصدر نظرياته الاجتماعية . فاذا علمنا ان هذا الجانب من اهتمامات ابن خلدون هو أهم جوانب بحوثه التي رفعت من شأنه أدركنا مدى قيمة هذا السلوك في بحوثه . وفي مكان آخر يشدد (علي وافني) بصورة أكثر تأكيداً على قيمة مبدأ (الملاحظة والمشاهدة) فيقول : (وجميع قوانين ابن خلدون وافكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الامم التي شاهدها أو عرف تاريخها) (٥٣) .

ولعل قيمة هذا الجانب في البحوث الاجتماعية وغيرها في العصور المتقدمة تتجلى في ان تلك العصور لا تقدم للباحث العلمي مايستعين به لافرار نظرياته وفي هذه الحالة لا بد للباحث ان يعتمد على جدارته بما يمتلكه من ملاحظات ومشاهدات وقوة ذهن وبعد نظر ليدرك ابعاد ما يصل اليه ويصدر بالتالي أحكامه .

ومن هنا لاحظ كل الذين درسوا ابن خلدون توافر هذا المنهج عنده . فهو في نظر باحث آخر (يرى ان الافيسة المنطقية لا تتفق مع طبيعة الاشياء المحسوسة . ذلك لان معرفة هذه لا تتسنى الا بالمشاهدة) (٥٤) .

أما لاكوسب فانه يعلق أهمية اكبر على مبدأ الملاحظة عند ابن خلدون بل هو يرى ان منهجه في الأساس يعتمد على التجربة . من هنا اكتسبت المقدمة صفة الحداثة العلمية لانه لا يصدر عن نظريات فلسفية انما هو يخضع لمراقبة دقيقة خارقة للواقع . (ان منهج ابن خلدون التاريخي الخالص هو في الواقع تجريبي بشكل أساسي وهو لا يستند الا على ملاحظة (طبيعة الأشياء) ولا يصدر مباشرة عن نظريات فلسفية مختلفة .

(٥٢) عبدالرحمن بن خلدون . ص ١٧٠ .

(٥٣) المصدر نفسه . ص ٢٠٤ .

(٥٤) قدري طوقان . مقام العقل عند العرب . ص ١٨٩ .

وهذا بالضبط يشكل الحداثة الخارقة لمؤلف ابن خلدون فهو بتخليه عن مساعي المذهب المدرسي قد أسس تفكيره على ملاحظاته الخاصة وعلى استعلامات مصححة بعناية ... انه مراقب للواقع دقيق بشكل خارق . ومفاهيمه انما تنجم عن حاصل ملاحظاته وثمار تبحره التي كانت معممة بطريقة موضوعية) . (٥٥)
ونحن نستطيع أن نتعرف على أكثر من صفة علمية لابن خلدون من قوله لأكوست هذه . من ذلك :

- ١ . ان منهج ابن خلدون تجريبي .
 - ٢ . الواقعية المحسوسة .
 - ٣ . حداثة المنهج .
 - ٤ . الدقة المتناهية في مراقبة الواقع .
 - ٥ . بناء المفاهيم والمبادئ على ملاحظات سبقت بطريقة موضوعية . وهذه صفات نحن نطلبها من باحث اليوم . فما بالك في تحققها لدى باحث بيننا وبينه مئات من السنين .
- ومن هنا فان ما توصل اليه ابن خلدون في نظرياته الاجتماعية لايعتبر (وسيلة الى الاصلاح الاجتماعي بل هو نتيجة لتفكير منهجي سليم) (٥٦) . كما ان نظرة ابن خلدون كانت علمية خالصة لان علم الاجتماع في نظره لا يهدف الى غاية عملية بل الى غاية نظرية) (٥٧) . والذي يشدنا الى الاعجاب بهذين الرجلين هو ما نعرف عن جهودهما في هذه المجالات التي لاتمت الى اختصاصيهما بشيء . وكل الذي دفعهما اليه - فيما يبدو - فضول علمي . وتصحيح لكثير من المفاهيم الخاطئة التي سادت عصريهما . وهذا الفضول يثير الاعجاب أكثر حين تجدهما يندفعان الى مجالات اخرى هي أقرب الى علم الجغرافية أو علم الاجتماع منها الى الأدب أو التاريخ .

● البيئة الطبيعية :

فهذا الجاحظ يبحث أثر البيئة الطبيعية في الشعوب حين يقرر ان لكل من التربة والماء والهواء تأثيراً في طباع البشر . ولاشك ان التحقيق العلمي الذي تجاوزه فيه الجاحظ ادباء

(٥٥) لأكوست : العلامة ابن خلدون : ٢٠٢ .

(٥٦) . (٥٧) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ٣٣٨ .

عصره هو الذي دفعه (الى اعتبارات قيمة حول أثر البيئة في الشعوب وفي هذا يستند الى قول بعضهم انه اذا فسد الهواء في ناحية من النواحي فسد الماء وفسدت التربة فعمل ذلك في طباع السكان على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد ياجوج وماجوج وقد رأينا ان العرب وكانوا اعرابا حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من تلك المعاني وربما الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناسا في صفة هؤلاء المغربين والأنباط (٥٧) .

وفي كتاب الحيوان يضرب الجاحظ لذلك مثلا بأهل هاشم حين سكنوا الأهواز فتغيرت بذلك طبائعهم وشمائلهم ويعزى ذلك الى أثر البيئة التي تغيرت عليهم (٥٨) . هذا ما يقرر الجاحظ عن أثر البيئة في البشر وطبيعته ومزاجه وخلقه وشكله ، وفي نفس الحالة يقرر ابن خلدون أثر البيئة الجغرافية في شكل البشر وطبعه بل هو يتعداه ليقرر ان ذلك يمتد أثره الى طبيعة العمران البشري (شكل السكان البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ، اذ الشمس لاتزال بافقهم في دائرة برأي العين أو ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامته ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشد البرد عامة فتبيض ألوان أهلها ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور) . (٥٩) ثم يضرب مثلا آخر على أثر الحر في طبائع البشر والوانهم بمثل ما تحدث به عن أثر البرد (٦٠) وهكذا . (والى البيئة الجغرافية في نظره يرجع السبب في اختلاف البشر في ألوانهم وجسومهم وميولهم ونشاطهم العام وكثير من صفاتهم الجسمية والخلقية . وللبيئة الجغرافية في نظره دخل كبير فيما يميز المجتمعات بعضها عن بعض ، من مقومات في التقاليد والعادات والعلوم والأفكار وشؤون الأسرة ونظم الحكم والسياسة والاخلاق والانفعالات وسائر أنواع الاجتماع) (٦١) . والى مثل هذا ذهب (منتسكيو) .

وقد انتبه كثير من الباحثين الى ما قرره ابن خلدون بشأن العلاقة بين البيئة وبين الانسان بل أكد بعضهم ان هذا الباحث يعتقد (ان للبيئة الطبيعية الأثر الأول في تكوين الأمم واكسابها طبائعها وخصائصها ، فالأمم تختلف في ألوانها ونشاطها وشجاعتها وكثرة

(٥٧) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . ١٣٨-١٣٩

(٥٨) انظر الجاحظ في كتاب الحيوان : ١٤٠/٤ .

(٥٩) ابن خلدون : المقدمة : ٨٤ .

(٦٠) انظر بشأن ذلك المصدر نفسه : ٨٣ .

(٦١) علي عبدالواحد وافي : عبدالرحمن بن خلدون . ٢١٢-٢١٣ .

عددها أو قلته وفيما فطرت عليه من الطبائع باختلاف مساكنها من وجه الأرض بين جبل وسهل وصحراء في منطقة باردة أو حارة أو معتدلة وفي بقعة خصبة أو قاحلة ... (٦٢) .

● النفس الانسانية :

وإذا كان الكثير مما أوردنا لا يثير العجب فإن ما يدهش حقاً أن يقف الرجلان أمام النفس الانسانية وقفة أعمق مما يظن . وهي ملاحظة ما ينتاب الانسان من حالات أو مشاعر لا تدخل للعقل الواعي فيها . وقد توصلنا في ذلك الى اقرار مبادئ معينة في (علم النفس) .

وقف كل من الجاحظ وابن خلدون يتأمل بعض ما يصدر عن الانسان من تصرفات أو ما ينتابه من حالات تبدو وكأنها غير طبيعية فالجاحظ يؤمن ايماناً لا يقطعه شك بما علل به أستاذة النظام موضوع الجن وأثره (في نفس الساري في الصحراء في سكونية الليل . هو تعليل مبتكر دقيق العلاقة بالتفسير النفسي . بل انه أشبه ما يكون بتعليلات علماء النفس في العصر الحديث) (٦٣) (وأصل هذا الأمر وابتدأه ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفراد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد عن الأنس استوحش ولا سيما مع قلة الأشغال والمذاكرة . والوحدة لا تقطع أيامهم الا بالمتن أو بالتفكير والفكر . وربما كان من أسبابه الوسوسة) (٦٤) . (فما أقرب هذا التعليل من تحليلات علماء النفس المعاصرين . وأي عقل يرفض مثل هذا التحليل المبني على كثير من المنطق ؟) (٦٥)

ويبدولنا ان ابن خلدون كان ألصق من الجاحظ بالنسبة لموضوعات النفس الانسانية . وذلك يعود الى ان دراسته لطواهر الحياة الاجتماعية . وتناوله لهذه المظاهر المختلفة هي التي قربته من هذه الدراسات . (ويفهم من استعراض هذه الآراء والمعلومات ان ابن خلدون كان من الروحيين الذين يعتقدون بوجود روح منفصل عن البدن) (٦٦) . وهذا ما يؤكده بقوله ان الانسان (مركب من جزأين أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به . ولكل واحد

(٦٢) ابن خلدون المقدمة ص ٥٤٠

(٦٣) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ : ٤٨ .

(٦٤) الجاحظ : الحيوان ٢٤٨/٦ - ٢٤٩ .

(٦٥) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ : ٤٨ .

(٦٦) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ٤١٥ .

من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني ، مدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية . الا ان المدارك الروحانية يدركها بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس . ولكل مدرك فله حواس بما يدركه (٦٧) وهذه الراء وان لم تكن جديدة تماما لانها (لاتخرج من حيث الاساس عن نطاق الراء الشائعة بين مفكري الاسلام في عهد ابن خلدون) (٦٨) الا انها ملاحظات قيمة تدل على عمق تفكير الرجل ودقة ملاحظاته ، وطول وقفته امام النفس الانسانية .

ومن هنا لم يترك القاريء حائرا في تفسير مايقول بل هو يؤكد من خلال واقع معين ، يمكن ان يقوم دليلا على ادعائه فيقول (واعتبره بحال الصبي في اول مداركه كيف يتجهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلاشك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد والذ ، فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة ، لايعبر عنهما وهذا الادراك لايحصل بنظر ولا علم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة . والمتصوفة كثيرا مايعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة (٦٩) . ويبدولنا ان ابن خلدون لم يخرج في كل من الحالتين عن الحديث عن النفس ، الا ان عمق الفكر ودقة الملاحظة اوصلاه الى التفريق بين مايدرك بحاسة ، وقد مثل له بحال الطفل ، ومايدرك بالذات من غير حاسة ، وقد مثل له بحال المتصوفة وهو يرى ان تحقق اللذة في النفس يكون اكثر عن طريق الاحساس الذاتي بغير واسطة (اي بغير حاسة) . وهذا دون شك ما يؤكده الواقع ، فان جلال الروح عند المتصوفة والذي يحقق عندهم روعة الحب في الله لايتحقق - فيما تقول اخبار المتصوفة - الا عن طريق (كشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية كلها) كما يقول ذلك ابن خلدون .

وفي مثل هذا التفسير النفسي يلتقي الجاحظ مع ابن خلدون ، من خلال المشاهدة والتجربة ايضا . وانظر اليه كيف يعلل تعليلا نفسيا ، مايجب ان تفعله الام حين تنوم طفلها فيقول : (فان الصبي يبكي بكاء شديدا متعبا موجعا فاذا كانت الام جاهلة حركته في المهد حركة ثورته الدوار او نومته بان تضرب يدها على جبينه ، ومتى نام الصبي وتلك الفرعة او اللوعة او المكروه قائم في جوفه ولم يعلل ببعض مايلهي ويضحكه ويسره حتى

(٦٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٧

(٦٨) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ٤١٩

(٦٩) ابن خلدون : المقدمة ٥١٧

يكون نومه على سرور فيسري فيه ويعمل في طباعه ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم
فان ذلك مما يعمل في الفساد (٧٠)

(الا نستشف من هذه الفقرة حديثاً عن العقل الباطني وعما يتراكم منه من مشاعر لا واعية
لها اثرها في تصرفات الانسان . تتحكم به عن غير ادراك منه وتؤثر حتى في علاقاته
بالآخرين ؟ أولانجد أيضاً في تحليله مفهوماً عصرياً في منهج التربية أيضاً حيث يطلب من
الام ان تسمح عن نفس طفلها اللوعة بما يلهيه ويبيعث في نفسه السرور لئلا ترسب في
قرارته تلك اللوعة وتفسد فيه الطباع) (٧١)

ولاشك ان ماتوصل اليه الرجلان يشكل جانباً من جوانب الوقفة الدقيقة التي لاتقدم
(الصفة العلمية) وهي جوانب تلتقي احياناً مع ماتوصلت اليه نظريات علم النفس في
العصر الحاضر . وان كان ذلك لايمتلك ماتملكه النظريات الحديثة من عمق ومن بعد ايضاً .
فاذا اخذنا فارق الزمن بنظر الاعتبار فاننا سنضع هذه الآراء والملاحظات في مكان لاشك
انها ترفع صاحبها الى جلال القدر وسموه .

● - مصادر ومراجع البحث -

١. أحمد أمين : ضحى الاسلام . القاهرة ب.ت.ج ١
٢. ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون . القاهرة ١٩٧٤ ترجمة ميشال سليمان .
٣. الجاحظ : كتاب الحيوان : القاهرة ١٩٦٩ ج ١-٧ .
٤. جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . بيروت ١٩٦٨ .
٥. جورج غريب : الجاحظ . بيروت ١٩٧١ ط ٢ .
٦. حنا الفاخوري : الجاحظ مصر ١٩٦٤ .
٧. داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ بغداد ١٩٦٠ .
٨. ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون . مصر ١٩٥٣ .
٩. شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب . القاهرة ب.ت .
١٠. صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ بيروت ١٩٧٥ .

(٧٠) الجاحظ : الحيوان ٢١٧/١

(٧١) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ ٤٩-٥٠

١١. طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية القاهرة ١٩٢٥ .
١٢. عبدالرحمن ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون . القاهرة . ب.ت.
١٣. عبدالله عبدالدايم : التربية عبر التاريخ . بيروت ١٩٧٣ .
١٤. علي عبدالواحد وافي : عبدالرحمن ابن خلدون مصر . ب.ت.
١٥. فكتور شلحت : النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ . القاهرة . ١٩٦٤ .
١٦. عمر فروح : عبقرية العرب العلم والفلسفة دمشق . ب.ت.
- تاريخ الفكر العربي الى الامام ابن خلدون بيروت . ١٩٦٦ .
١٧. قدري حافظ طوقان : مقام العقل عند العرب . مصر ب.ت.
١٨. كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي . ج ٣ ط ٢ القاهرة ب.ت.
١٩. محمد عبدالله عنان : ابن خلدون القاهرة . ١٩٣٣ .
٢٠. محمد عبد المنعم خفاجي : أبو عثمان الجاحظ . القاهرة . ب.ت.
٢١. محمود قاسم : المتطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة ١٩٦٦ . ط ٤ .
٢٢. وديعة طه النجم : الجاحظ والحاضرة العباسية . بغداد ١٩٦٥ .